

علي الطنطاوي

الإمام النووي



الإمام النووي

علي الطنطاوي

الإمام النووي

دار الفكر

الرقم الاصطلاحي: ٤-٠٣١,٠٣٦,٠٠
الرقم الموضوعي: ٩٢٠
الموضوع: تراجم وسير
العنوان: الإمام النووي
التأليف: علي الطنطاوي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: مطبعة سيكو - بيروت
عدد الصفحات: ٦٤ ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.Fikr.com/
E-Mail: Info @Fikr.com

إعادة 1997
الطبعة الثانية
1399 هـ = 1979 م
ط1 1960

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك، اللهم إني أسألك أن تنفع به، وأن تثيبني عليه، وصلّ اللهم على سيدنا محمد معلم الخير وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

ضيف في نوى

نحن في قرية نوى في حوران ، في رمضان سنة ٦٣٨ للهجرة ، وكانت نوى في تلك الأيام قاعدة الجولان ، وكان أهل البلد يحتفون بضيف كريم ، زار بلدهم ، هو شيخ حجام اسود ، له دكّان في (باب الجابية) بدمشق • لم يكن عالما ، ولكنه كان صالحاً متعبداً ، قد حج أكثر من عشرين مرة ، صاحب كرامات ، اسمه الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي ، وكانت الصوفية منتشرة يومئذ ، وكان الناس (يعتقدون) مثل هذا الرجل •

ومرّ الشيخ بسوق القرية ، فرأى النووي وكان ولداً عمره سبع سنين ، يشتغل أجيراً في دكان ، فنظر اليه ، وكلمه ، ثم قال :

ـ من أبو هذا الصبي ؟

ـ قالوا : رجل من بلدنا •

ـ قال : من أين هو ؟

ـ قالوا : أصله من العرب نزل جده الاعلى بهذه القرية وتناسلت ذريته فيها •

ـ قال : دلوني عليه •

ـ قالوا : نحن ندعوه لك •

ـ قال : بل انا الذي يمشي اليه •

فمشى اليه ، فلما رآه سأله عن الصبي ، فقال :

ـ هو ابني •

ـ قال : استوص به ولقنه العلم فانه يرجى أن يكون أفضل أهل زمانه •

قال : أمنجم أنت ؟

قال : لا ، وإنما أنطقني الله بذلك •

ليلة القدر

وجاء اليوم السابع والعشرون من رمضان فأفاق الولد قبيل السحر وأيقظ أباه وقال :

ـ يا أبت ، ما هذا الضوء الذي ملأ الدار ؟

واستيقظ أهله جميعاً ، فنظروا فلم يروا شيئاً •

ـ قال أبوه : فعرفتُ أنه رأى ليلة القدر (!)

يعلمه العلم

وتذكر أبوه ما كان قاله الشيخ الزاهد من أيام ، فأخرجه

من الدكان ، وبعث به الى من يعلمه العلم ، فلبث يقرأ على مشايخ أهل قريته وما حولها ، وكان رفاقه من الصبيان يسحبونه من يده ليلعبَ معهم ، فيفلت منهم ويعتزلهم ، فيقرأ في كتابه ، حتى بلغ مبلغاً من العلم ، وهو دون الحلم •

ومن طريف ما حدّث به عن نفسه : انه قرأ تلك الفترة أنه (يجب الغسل من إيلاج الحشفة) فلم يدر ما معناها ، فاعتقد انه قرقرة البطن ، فكان يغتسل كلما قرقر بطنه •

الى ان بلغ التاسعة عشرة ، فقدم به أبوه الى دمشق •

مدارس دمشق

وكان في دمشق (كما كان في أكثر البلاد الاسلامية) مدارس لطلبة العلم ، يجد فيها الطالب طعامه وشرابه ، وغرفة ينام فيها ، ومدرسين يقرأ عليهم •

وكانت هذه المدارس في المساجد او الى جوارها ، يتلقى فيها الطالب العلم والعمل ، ويكون على صلة بالله ، فيخلص النية في طلب العلم له ، ويقصد به وجهه ، لا يقصد به الشهادات ، ولا الرواتب ، ولا الدنيا ، فيكرمه الله بذلك فيعطيه عزّ الدنيا والآخرة •

ومن يرى اليوم هذه المدارس القديمة المنثورة في أزقة دمشق وطرقها ، والتي اختلس الناس جلّها وأجلّها ، يعجب من كثرتها ، ويظن انها كانت مفتحة الابواب لكل عالم أو متعلم ، تعقد فيها الحلقات ، كما تعقد في المساجد ، فمن شاء من العلماء جلس للاقراء ، حيث شاء ، ومن أراد من الطلاب دخل في أي حلقة أراد . لا يدري انها كانت درجات ، كدرجات المدارس اليوم ، فمنها ما هو كالابتدائية ، ومنها ما هو كالثانوية ، ومنها ما هو كالجامعة ، وكان منها مدارس اختصاص مثل الكليات ، مدارس للاختصاص في القرآن وعلومه ، ومدارس للحديث ، ومدارس للفقه الحنفي ، والفقه الشافعي ، والفقه الحنبلي ، ومنها ما كان فيه فروع لذلك كله كالمدرسة العمرية في الصالحية ، التي لم يبق منها إلا أنقاض .

وكان من المدرسين من هو كالمحاضر اليوم ، ومنهم المدرس الثابت الاصيل ، ومن كان (معيناً) في مدرسة ويحاضر في أخرى .

ومن قرأ كتاب (الدارس في المدارس) عرف ما هذه المدارس وما شأنها .

دار الحديث وعلماؤها

وكانت دار الحديث وهي المدرسة العالية في (مادة الحديث) قد افتتحت (رسمياً) يوم النصف من شعبان سنة ٦٣٠ قبل

ولادة النووي بسنة ، وكان أول مدرس فيهـا الشيخ الأجل تقي الدين (ابن الصلاح) صاحب التصانيف المشهورة ، وكـان من تلاميذه فيها ابن رزين ، وابن خلكان ، والكمال سـلامه ، والكمال اسحاق ، وعبد الرحمن بن نوح المقدسي ، وابو شامة • فكان هؤلاء هم أساتذة النووي في دمشق •

أساتذته

واجتمع النووي اول ما قدم دمشق بالشيخ جمال الدين ابن عبد الكافي خطيب الجامع الاموي وإمامه ، فعرّفه مقصـده ، فأخذه وتوجه به الى حلقة الشيخ تاج الدين الفزاري ، المعروف بـ (ابن الفركاح) فقرأ عليه دروساً ، ولازمه أياما ، ولم يكن له موضع يأوي اليه ، ولم يكن بيد تاج الدين من المدارس سـوى الصارمية ، ولا بيوت لهـا (أي ليس فيها غرف) فـدله على الشيخ الكمال اسحاق المغربي بالمدرسة الرواحية[1] ، وهو من تلاميذ ابن الصـلاح الذين تخرجوا عليـه في دار الحديث ، فأعجب به لما رأى من دأبه على القراءة وجـدّه وانصرافه الى العلم والعبادة ، وعدم اختلاطه بالناس ، وأحبه محبة شديدة ، وجعله معيد الدرس بحلقته لاكثر الجماعة ، وأعطاه غرفة صغيرة في (الرواحية) فبقي فيها الى ان مات •

---

(١) وكـانت لصق الجـامع الاموي مـن جهـة باب جيرون (باب النوفرة) والكمال هو اسحاق بن احمد بن عثمان المغربي ثم المقدسي ، الامام المتفق على علمـه وزهده وورعه •

في المدرسة الرواحية

وأمضى فيها سنتين لما قدمها ، لم يضطجع فيهما أبداً ، بل كان يقرأ ليلا ونهاراً ، لا يقوم إلا الى الوضوء او الصلاة ، وكان اذا غلبه النعاس ، أسند رأسه الى الكتب ، وكانت ركاماً حوله ، فأغفى ساعة ثم قام ، وكان يعيش على جراية المدرسة ، وكانت قليلة ، ولكنه كان يكتفي بها ، وربما تصدق منها .

الى الحج

فلما كانت سنة ٦٥١ حج مع أبيه ، وارتحلوا في رجب فاستطاع بذلك ، ان يقيم في المدينة المنورة نحواً من شهر ونصف شهر ، وكانت الوقفة في تلك السنة يوم الجمعة .

ولزمت الشيخ الحمى من ساعة خروجه مع أبيه من نوى ، الى ان رجع ، وهو صابر محتسب ، ما تأوه ولا شكا .

وفتح الله عليه بهذه الحجة ، ونوّر قلبه ، ولحقته فيها يقظة روحية عجيبة ، فلما رجع الى دمشق ، صبّ الله عليه العلم صباً ، ولاحت عليه أمارات النجابة والنبوغ .

دراسته

وقد حفظ لنا المؤرخون وصفاً صادقا لما كان يقرأ من الكتب، نجد فيه اليوم صورة كاملة لأسلوب التعليم في تلك الايام، والكتب التي كانوا يدرسونها •

ذلك انه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً : درسين في كتاب الوسيط ، وثالثاً في كتاب المهذب ، ودرساً في كتاب الجمع بين الصحيحين ، ودرساً في صحيح مسلم ، ودرساً في كتاب اللمع لابن جني في النحو ، ودرساً في كتاب اصلاح المنطق لابن السكيت في اللغة ، ودرساً في التصريف ، ودرساً في أصول الفقه تارة في اللمع لابي اسحاق وتارة في المنتخب للفخر الرازي ، ودرساً في أسماء الرجال ، ودرساً في أصول الدين •

طريقة الدرس

وكانت طريقة الدرس ، ان الطالب كان يراجع الباب قبل الدرس ، ثم يتلوه المعيد في الحلقة ، ثم يشرحه الشيخ ، ثم يجيب عن الاسئلة الواردة عليه ، ثم تكون المناقشة فيه •

وهي الطريقة التي لا تزال متبعة في كثير من جامعات اوربا الى اليوم ، وهي خير الطرق لتحصيل العلم •

قال الشيخ النووي : وكنت اكتب جميع ما يتعلق بـذلك من شرح مشكل ، وايضاح عبارة ، وضبط لغة . وبارك الله لي في وقتي واشتغالي وأعانني عليـه .

الامتحان والاجازة

وكان من طريقتهم ، ان الشيخ يمتحن الطالب فيما قرأ ، ثم يجيزه به .

والاجازة على درجات ، منها الاجازة العامة ، ومنها الاجازة الخاصة . وليس للاجازة العامة اعتبار الاجازة الخاصة . بل كان العلماء يستنكفون عن العمل بها .

قال السخاوي في الاجازة العامة التي أجازه بها النووي :

ولست تبعاً لشيخي (يعني ابن حجر) احب العمل بها ، وفيما تحملناه ولله الحمد ، غنية عن التوسع بها .

وهذا نص اجـازة خاصة للنووي لمـا أتم بعض كتـاب التنبيه :

روى السخاوي أن هذه الاجازة وجدت على نسخة الفقيه الشيخ بدر الدين بن الصائغ الدمشقي وهي :

الحمد لله كما هو أهله

عرض على الفقيه ابو زكريا يحيى بن شرف النووي من اول

كتاب التنبيه في الفقه ، وقد امتحنت حفظه في مواضع منه وأذنت له بتكراره ، على جمعه وتحصيله ، وفقني الله وإياه له وللعمل به .

وذلك في مجلس واحد لسبع مضين من شهر ربيع الاول سنة خمسين وستمئة .

كتبه محمد بن رزين الشافعي[1] حامداً مسلما مستغفرا .

الطب

وفكر في دراسة الطب ثم عدل عنه ، قال :

« وخطر لي الاشتغال بعلم الطب فاشتريت القانون (لابن سينا) وأخذت انظر فيه ، فأظلم قلبي ، وبقيت أياماً لا أقدر على الاشتغال بشيء ، ففكرت في أمري من أين دخل عليّ الداخل ، فالهمني الله أن اشتغالي بالطب سببه ، فبعت في الحال الكتاب المذكور ، وأخرجت من بيتي ما يتعلق بعلم الطب ، فاستنار قلبي ورجع حالي[2] ، وعدت لما كنت عليه أولاً » .

---

(١) وابن رزين هذا هو قاضي القضاة تقي الدين أبو عبد الله ، كان ممن اخذ عن ابن الصلاح ودرس بالمدرسة الشامية الحسامية ، وامّ بدار الحديث الاشرفية ، ثم ولي قضاء مصر ، وكان كبير القدر حميد الذكر ، مات في رجب سنة ٦٨٠ .

(٢) الحال ، والداخل (وهو الخاطر المشوش) من اصطلاحات الصوفية .

شيخه في التصوف

وكان من المألوف في ذلك العصر ، ان طالب العلم كما يختار لنفسه من يقرأ عليه العلم ، يختار كذلك من يوجهه التوجيه الروحي ، أي يسلكه (الطريق) الى معرفة الله ، وكان شيخ النووي في الطريق هو الشيخ المراكشي الذي كان بشره بالنبوغ وهو صغير في الدكان ، وكان النووي يزوره ويستشيره في أموره ويرجو بركته .

بعض شيوخه

وكان أول شيوخه الكمال اسحق المغربي ، ثم قرأ على غيره من تلاميذ ابن الصلاح وعلى أقرانهم .

منهم عبد الرحمن بن نوح المقدسي[1] ، وقرأ الحديث على المحدث الضياء ابن تمام الحنفي ، واللمع لابن جني قرأه على الفخر المالكي ، واصلاح المنطق لابن السكيت قرأه على الشيخ أحمد بن سالم المصري النحوي اللغوي ، وقرأ عليه بعده كتاب سيبويه .

---

(١) الذي كان يدعى مفتي الشام ، وهو لقب علم لا لقب منصب ولم يكن هذا المنصب معروفا ، وهو ابو محمد عبد الرحمن بن نوح بن محمد بن ابراهيم بن موسى المقدسي ثم الدمشقي .

وقرأ المنتخب للفخر الرازي ، وقطعة من المستصفى للغزالي على القاضي ابن الفتح عمر بن بندار ، ثم سمع (الحديث) من جماعة كثيرين ، منهم الشيخ ابو الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر بن احمد بن قدامة المقدسي ، وهو أجل شيوخه ، ومنهم القاضي عبد الكريم بن عبد الصمد الحرستاني خطيب دمشق •

بعض الكتب التي قرأها

أما الكتب التي سمعها في الحديث ودرسها مع هؤلاء المشايخ ، فهي الكتب الستة ، والموطأ لمالك ، ومسند احمد ، ومسند الشافعي والدارمي وابي يعلى ، وصحيح ابي عوانه ، والسنن للدارقطني وللبيهقي والبغوي •

وكان اشتغاله بالحديث متأخراً ، ولو اشتغل به أول قدومه دمشق ، للحق (كما قال الذهبي) طبقة أعلى من الطبقة التي سمع منها كمكي بن علان والرشيد بن مسلمة •

ومما قرأه من الكتب قراءة ضبط وتحقيق على المشايخ ، لا قراءة مرور نظر : تفسير البغوي و (عمل اليوم والليلة) لابن السني ، والجامع لآداب الراوي والسامع للخطيب ، والرسالة القشيرية في التصوف ، والأنساب للزبير بن بكار •

وأنا أعد هذه الكتب وأسمي هؤلاء المشايخ ليكون من ذلك صورة كاملة لأسلوب هذه الدراسة في تلك الايام ، ولنشأة

الشيخ النووي ودراسته ، وهذه الكتب كلها كتب معروفة لا تحتاج الى تعريف بها ، وأكثر هؤلاء المشايخ مشهورة أسماؤهم، ومن كان من القراء لم يسمع بهم ، فانه يستطيع اذا أحب الاطلاع ورغب في البحث ، ان يجد الكلام عنهم في مثل طبقات السبكي ، او الخلاصة للخزرجي ، او الاعلام للزركلي ، ولو قرأ (الدارس في المدارس) لكان أجدى عليه .

وقد استطاع أن يقرأ هذه المجموعة الضخمة من الكتب في هذا الامد القصير من الزمن ، لانه لم يكن يضيع دقيقة من ليل ولا نهار ، إلا في الاشتغال بالعلم ، حتى انه في ذهابه وإيابه ، يكرر في ذهنه ما حفظ ، أو يفكر بعقله في حل مشكلة ، أو توضيح مسألة ، وكان مع ذلك كثير التلاوة للقرآن ، كثير الذكر .

اشتغاله بالتصنيف

ثم اشتغل بالتصنيف وأخرج هذه المصنفات الكبار ، التي بقيت الى اليوم ، وستبقى ان شاء الله الى يوم القيامة ، ينبوع علم ، ومدد هدى ، وحسنة مكررة ، لمؤلفها .

من أجلّها وأعظمها كتاباه :

شرح صحيح مسلم ، وهو كتاب جليل جداً ليس في شروح الحديث (بعد شرح البخاري لابن حجر) ما هو أكثر منه فوائد واجزل نفعاً . وهو مطبوع معروف .

والمجموع ، شرح المهذب للامام العظيم ابي اسحاق الشيرازي ، وهو من اوسع المراجع الفقهية ، وقد طبع القسم الذي وجد منه •

ورياض الصالحين والاذكار ، وهما مطبوعان يغني العلم بهما عن وصفهما •

وتهذيب الاسماء واللغات ، وهو مطبوع ، والاربعين النووية ، وقد لقي من العناية والانتشار والاقبال على شرحه وخدمته ما لم يلق مثله إلا الاقل من الكتب •

وله كتب أخرى كثيرة منها : مختصر اسد الغابة ، وبستان العارفين في الزهد والتصوف ، ومناقب الشافعي (اختصر فيه كتاب البيهقي) ، وله المنهاج في الفقه الشافعي وهو كتاب عظيم النفع •

عدد مؤلفاته

ومؤلفاته تبلغ الخمسين كتابا عدّ اكثرها السخاوي في الجزء الذي أفرده لترجمته ، ومنها كتب شرع بها ولم يتمها •

وقد أعطى احد تلاميذه مرة (وهو ابن الملقن) نحو الف كرّاس بخطه وأمره بابادتها فلم يسعه أن يخالف أمره وأبادها وفي نفسه حسرات •

* * *

بدأ بتأليف هذه الكتب وسنه نحو الثلاثين ، وتوفي ولم يجاوز الخامسة والاربعين ، فكان تأليفها في نحـو خمس عشرة سنة فقط !

المنهاج

انتشرت هذه الكتب في الاقطار ، وعم النفع بها في حياته وبعد مماته ، فكتابه (المنهاج) مثلا لا يحصى عدد من حفظه ، لحسن اختصاره ، وعذوبة ألفاظه ، وأكثرَ العلماءُ والناظمون القولَ في مدحه على ذلك ، حتى سارت اقوالهم فيه مسير الامثال، من ذلك ما قاله البرهان الجعبري :

لله در امام زاهد ورع ... أبدى لنا من فتاوى الفقه منهاجا
الفاظه كعقود الدر ساطعة ... على الرياض تزيد الحسن ابهاجا
أحيا لنا الدين (محييه) فألبسه ... بما تنوع من تصنيفه تاجا

وقال الشمس النواحي :

يمم حمى النووي ولذ بعلومه ... وأنخ بروضته تفز بحقائقه
واصرف لها ساعات وقتك ترتقي ... درجاً الى منهاجه ودقائقه

وقال التاج السبكي في أول القطعة التي شرحها منه :

(هذا الكتاب في هذا الوقت ، هو عمدة الطلبة ، وكثير من الفقهاء ، في معرفة المذهب) ولا يزال كذلك الى ايامنا هذه .

وقد اشتغل به شرحاً أو تعليقاً أو نظماً ، أكثر من أربعين من فقهاء الشافعية ، عدّهم السخاوي ، ومن هذه الشروح ما هو موجود معروف ، ومنها ما ضاع ، ومما ضاع شرح كبير في عشر مجلدات لأبي الفداء اسماعيل بن خليفة ، فيه (كما قالوا) نقول نفيسة وأبحاث كثيرة ، ولم يكن ولده يمكّن أحداً من نسخه ففقد .

شرح المهذب

أما شرح المهذب فهو أعظم ما كتب النووي في الفقه ، لم يصنّف في مذهب الشافعية على مثل أسلوبه .

قال الاسنوي وابن الملقن : ليته اكمله ونقصت كتبه كلها .

وقال ابن كثير في تاريخه : « انه لو كمل لم يكن له نظير في بابه ، لانه أبدع فيه وأجاد ، وأفاد ، وأحسن الانتقاء ، وحرر الفقه في المذهب وغيره ، وحقق الحديث على ما ينبغي ، وبحث في اللغة ، ولا أعرف في كتب الفقه (يريد الفقه الشافعي) احسن منه، على انه يحتاج الى أشياء كثيرة تزاد عليه ، وتضاف اليه .

وقال في طبقات الشافعية : « سلك فيه طريقةً وسطاً ، سهلاً جامعاً لأشتات الفضائل ، وعيون المسائل ، ومذاهب العلماء ، ومفردات الفقهاء ، وتحرير الالفاظ ، وبيان صحة الحديث من سقمه ، وبالجملة فهو كتاب ما رأيت أحداً نسج على منواله من المتقدمين ، ولا حذا على مثاله مصنف من المتأخرين » .

وقال العثماني (قاضي صفد) : انه لا نظير له ، ولم يصنف مثله ، ولكن ما اكمله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، إذ لو أكمله ما احتيج الى غيره (أي في فقه الشافعية) ، وبه عرف قدره واشتهر فضله .

حاول التقي السبكي تكملته ، وقال في أول التكملة في وصف المؤلف :

(الشيخ الامام العلامة ، علم الزهاد ، وقدوة العبّاد ، محيي علوم الاولين ، وممهد سبل الصالحين) .

وهذه أوصاف ابتذلت لكثرة ما رددت في أوصاف العلماء ، حتى فقدت معانيها ، وصارت تقرع الاسماع ، فارغة من المعنى ، عارية عن المدلول ، أما هنا فكلها من الوصف الصادق ، والحقيقة الخالية من مبالغات الخيال .

فلقد كان النووي ولا يزال (إماماً) من أئمة الفقهوالحديث، زاحم في تاريخنا العلمي أكابر الفحول ، وكان (علم الزهاد ، وقدوة العبّاد) حقاً ، ألقى الدنيا وراءه ، فلم يحفل بها ، وجعل الآخرة أمله ، لم يشتغل بغيرها ، ولم يسع إلا لها ، ولم يكن يبالي بمغريات المال ، ولا بمغريات الجمال ، (أحيا بتصانيفه علوم الاولين ، ومهد السبيل للصالحين المصلحين) .

ثم قال السبكي : وقد طالت الرغبة الى تكملة شرح المهذب وكثر الالحاح عليّ ، وأنا أقدم رجلا وأؤخر اخرى ، وأقول قد

يكون تعرضي لذلك مع قصوري عن مقام هذا الشارح ، إساءة اليه ، وجناية مني عليه ، وكيف أنهض بما نهض به وقد أسعف بالتأييد ، وساعدته المقادير ، فقرّبت منــه كل بعيد ، وان ذلك يحتاج بعد الاهلية الى ثلاثة أشياء .

احدها : فراغ البــال ، واتساع الزمان ، وكان رحمه الله قد أوتي من ذلك الحظ الاوفى ، بحيث لم يكن له شاغل ، عن ذلك من تعيّش ولا أهل .

والثاني : جمع الكتب التي يستعان بها على النظر ، والاطلاع على كلام العلماء ، وكان رحمه الله قد حصل له من ذلك حظ وافر لسهولة ذلك في بلده في ذلك الوقت .

والثالث : حسن النية ، وكثرة الورع والزهد ، والاعمال الصالحة ، وكان رحمه الله قد اكتال من ذلك بالمكيال الاوفى .

فمن تكون اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث ؟ وأنى يضاهيه أو يدانيه من ليست فيه واحدة منها (الى ان قال) وقد استخرت الله تعالى وقلت في نفسي :

لعله ببركة صاحبه ونيته يعينني الله تعالى عليه .

★ ★ ★

ووصل في التكملة الى كتاب التفليس .

قال السخاوي :

(ولم يتهيأ إكماله لأحد ممن انتدب لذلك من العلمـاء ، لا اسماعيل الحسباني ، ولا التاج السبكي ، ولا الشهاب ، ولا ابن النقيب ، ولا السراج البلقيني (وقد سمى ما كتب : الينبوع في تكملة المجموع وكتب منه مجلداً من النكاح) ، ولا الزين العراقي ولا ولده .

وعد ذلك من كرامات مؤلفه) .

الروضـة

أما كتابه الروضة فقد صار (كما قال الاذرعي) عمدة اتباع المذهب الشافعي في هذه الامصار ، وكتابه المطول يلجأ اليهـا المفتي في فتاواه ، والقاضي في أحكامه .. وقد استمدها (كما قال السخاوي) من كتاب الامام الرافعي واعتمد على نسخة البادرائي التي بخزانة مدرسته (البادرائية) بدمشق ، وهي نسخة سقيمة فجاء في مواضع منها خلل .

وقد عني بالروضة جماعة من العلماء واشتغلوا بها اختصاراً وتعليقاً ، ولقد عزم النووي قبل وفاته على غسلها (محوها) كما غسل غيرها ، فقيل له :

قد سارت بها الركبان .

فقال : في نفسي منها أشياء .

وكان يريد مراجعتها وتحريرها فلم يتسع له العمر .

شرح مسلم

وأما شرح مسلم فهو كتاب جليل ، لا اعرف في الشروح أجلّ منه إلا شرح ابن حجر على البخاري • (قال ابن كثير) انه جمع فيه شروح من سبقه من المغاربة وغيرهم •

وقد اختصره وتعقبه في مواضع محمد بن يوسف القونوي الحنفي وابن عبد الهادي •

قال السخاوي :

وقد استدرك شيخنا (يعني ابن حجر العسقلاني) على الشيخ مواضع كان غرضه اقرارها بالتأليف فما اتفق له ، وكان شديد الأدب معه حتى سمعته مراراً يقول : لا أعرف نظيره •

النووي في مشيخة « دار الحديث »

في رمضان من سنة ٦٦٥ توفي الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي شيخ دار الحديث[١] ، وقد تطلع كبار علماء دمشق الى هذا المنصب ، الذي كان أجل مناصب التدريس فيها، وكان بمثابة مشيخة الاسلام ، وكان النووي شابا لا تتجاوز سنّه اربعاً وثلاثين سنة ، وكان كثير من مشايخه لا يزالون أحياء ، ولكنه صار المرجع في الحديث وفي علم الرجال وفي

---

(١) المعروف بابي شامة ، لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الايسر ، المقرىء النحوي المؤرخ صاحب كتاب (الروضتين في تاريخ الدولتين) المشهور ، وهو ثالث شيخ ولي دار الحديث •

التصريف والعربية . أما الفقه الشافعي فقد كان فيه كما قال السبكي في الطبقات :

شيخ الاسلام بركة الطائفة الشافعية محيي المذهب ، ومنقحه، ومن استقر العمل بين الفقهاء على ما يرجحه ، وتصانيفه العمدة فيه .

فولوه مشيختها ، وقبل بعد تردد وتمنع ، فأعاد اليها أيام ابن الصلاح ، وأفاد فيها الطلبة فوائد عظيمة ، وصارت به محجة القاصدين ، وكان مما قرأه فيها للطلاب الصحيحان سماعاً وبحثاً ، وسنن أبي داود ، والرسالة القشيرية ، وشرح معاني الآثار للطحاوي (الحنفي) .

ولم يكن يكتفي بتلقين تلاميذه العلم ، بل كان يأخذهم بحسن السلوك مع الله ، ومع الناس ، قال تلميذه السخاوي :

وكنت مدة صحبتي له مقتصراً عليه دون غيره ، من أول سنة سبعين (أي ٦٧٠) وقبلها بيسير ، الى حين وفاته .

وقرأت عليه الفقه تصحيحاً وعرضاً وشرحاً وضبطا ، خاصا وعاما ، وقرأت عليه تصانيفه ضبطاً واتقاناً ، وأذن لي في اصلاح ما يقع من تصانيفه ، فأصلحت بحضرته أشياء أقرني عليها، وكتب بخطه .

وكان رفيقاً بي ، شفيقاً عليّ ، مع مراقبته لي في حركاتي وسكناتي ، ولطفه بي في كل ذلك ، وتواضعه معي في جميع الحالات ، وتأديبه لي في كل شيء حتى الخطرات •

وأخذ عنه وتخرج به جماعات يطول ذكرهم وتعداد أسمائهم •

★ ★ ★

أخلاقه وسيرته

وبعد أفرأيتم هذا كله ؟

هذا الجد في الطلب ، وهذه السعة في العلم ، وهذه العبقرية في التأليف ؟

ان له بعدها شيئا ، ان لم يكن أعظم منها كلها ، فليس بدونها • هو أخلاقه وسيرته •

وان في تاريخنا وتواريخ الامم كثيراً من العلماء الاجلاء ، ومن المصنفين المكثرين المجوّدين ، ولكن ليس في تاريخنا إلا القليل ممن يماثله في هذه السيرة وهذه الاخلاق •

أما تاريخ غيرنا فما فيه مثله على الاطلاق •

ان أهمت الناس شهوة البطن ، أو شهوة الفرج ، أو شهوة المال ، أو شهوة الجاه . فان النووي قد فرغ من أثر هذه الشهوات جميعا ، ولم يكن لها في قلبه مكان .

طعامه

أما الطعام ، فكان قد ترك جميع ما في الدنيا منه ، واقتصر على ماكان يرسله اليه ابوه من حوران ، من الخبز الذي كان يخبزه له وينشفه ، فيبقى عنده جمعة ، او عشرة أيام ، يبله ويأكل منه ، والتين الحوراني ، وربما أكل مع الخبز الدبس او الزيت ، ولا يأكل اللحم إلا في نوى ، عندما يزور والديه فيها . وكان يأكل أكلة واحدة بعد العشاء ويشرب في السحر .

ولم يكن يأكل من فواكه دمشق ، ولقد سئل عن سبب ذلك ، فقال :

ــ إن دمشق كثيرة الاوقاف وفيها الاملاك الكثيرة لمن هو تحت الحجْر شرعاً ، ولا يجوز التصرف في الوقف وفي ملك الصغير والمحجور عليه إلا على وجه المصلحة للوقف والصغير والمحجور عليه ، والناس لا يفعلون ذلك ، فلا تطيب نفسي بالأكل منها .

وجاء أخوه مرة من نوى ، فلم يستطع أن يأكل من طعامه ، فقام الى السوق وأحضر شواء وحلوى ، وقال له : كل .

فلم يأكل • فقال له :

ــ يا اخي أهذا حرام ؟

قال : لا ، ولكنه طعام الجبابرة •

وكان يخشى أن يكثر من الطعام فيغلبه النوم ، فيضيع به وقتــه ، ولقــد قشر له رجــل خيارة وقدمها اليه ، فامتنع عــن أكلها ، وقال :

ــ أخشى أن ترطب جسمي وتجلب لي النوم •

لباســه

أما لباسه ، فكان (كما قال الذهبي) مثل آحاد الفقهــاء من الحوارنة لا يؤبه له ، وهــو ثوب خــام ، وشيء كالجبــة الضيقة •

لم يتزوج

أما شهوة الفرج ، فقد تخلص منها ، فلم يتزوج ولم ينظر الى امرأة(١) ، وكان يحصر نفسه وسط سور من كتب العلم ،

---

(١) واذا كان قد ترك الزواج ، على صلاحــه وفضله ، فليس ترك الزواج فضيلة يقتدى به فيهــا ، ولا هو مــن مطالب الشرع ، ولعــل له عــذرا خفيا ، او مانعا منــه لم يعلنه ، فلا يحتج به احد مــن الشباب في ترك الزواج ، فان الزواج من سنن الاســلام • ولفتح بيت مسلم وتنشئة اولاد صالحين ، والكد في الدنيــا للانفاق عليهم من الحلال ، افضل في نظر الاسلام قطعا من الانقطاع للعبادة والعلم •
=

ومجالسه ، وخلوات الذكر والعبادة ، وكانت حياته جداً خالصاً ، فلا تسلية ولا نكتة ، ولا ضحك ولا لهو ، ولا يضيع منها لحظة في شيء من ذلك .

لا يريد الدنيا

قال السخاوي : وذكر لي العلامة رشيد الدين اسماعيل بن المعلم الحنفي قال :

عذلته في تضييق عيشه في أكله ولباسه وجميع أحواله ، وقلت له :

أخشى عليك مرضاً يعطلك عن أشياء أفضل مما تقصده .

فقال لي : ان فلاناً عَبَدَ اللهَ حتى اخضر عظمه .

قال : فعلمت انه ليس له غرض من المقام في دارنا ، ولا الالتفات لما نحن فيه .

=

ولا رهبانية في الاسلام . ولو انقطع الرجال جميعا للصلاة والذكر ، لما بقيت في الدنيا بقية من امة محمد ﷺ .

لا . ولكن نسلك مسلك الرسول وصحابته ، ونقتدي بهم ، ونتبع سبيلهم .

الرواتب والهدايا

أما المال ، فان النووي ، قد نفض يده منه أصلا ، وماذا يصنع بالمال ، من كان كل مطلبه من دنياه ، مسكناً يُكنّه ، وثوبا يستره ، وشيئاً يمسك به صلبه ؟

ولقد كان لدار الحديث الاشرفية راتب كبير (جامكية واسعة) فما أخذ منها فلساً ، بل كان يجمعها عند ناظر المدرسة ، وكلما صار له حق سنة ، اشترى به ملكاً ، ووقفه على دار الحديث، فإن لم يكف لذلك اشترى به كتباً فوقفها على خزانة المدرسة . ولم يأخذ من غيرها شيئا .

وكان لا يقبل من أحد هدية ولا عطية ، إلا ان كانت به حاجة الى شيء وجاءه ممن تحقق دينه ، ولم تكن له به صلة اقراء أو انتفاع قصداً للخروج من حديث (اهداء القوس[1]) .

وكان لا يقبل إلا من والديه وأقاربه ، فكانت أمه ترسل اليه القميص ونحوه ليلبسه ، وكان ابوه يرسل اليه ما يأكله ، وكان ينام في غرفته التي سكن فيها يوم نزل دمشق في (المدرسة الرواحية) ولم يكن يبتغي وراء ذلك شيئا .

---

(١) الذي اخرجه البيهقي في سننه وهو ان أبي بن كعب علم رجلا القرآن فأهدى اليه قوسا ، فقال له النبي ﷺ : ان اخذتها فخذ بها قوسا من النار . وقد تكلموا في هذا الحديث .

زاهد حقيقي

فكان زاهـداً حقيقـة ، لا يتظاهر بالزهـد في الدنيا ، ليأكل بالزهـد الدنيا ، ولا يعرض عنهـا ونفسه متعلقة بهـا ، بل كان إعراضـه عنهـا بقلبـه ، أكثر من إعراضـه عنهـا بجوارحه •

كان مرجع الناس في الخطوب

ولكن لا تظنوا انه كان كالرهبان في الاديار ، والدراويش في الزوايا ، قـد اعتزل دنيـاه فلا يدري ماذا فيهـا ، وانقطع عن الناس فلا يعرف ما هم عليه • لا ، بل كان المرجع في كل ملمة تلم بالبلد • وكان مفزع الناس في الخطوب اليه ، واعتمادهم بعد الله في الملمات عليه • وكان سفيرهم الى الملوك ، ووسيلتهم الى السلاطين •

أسلوبه مع السلاطين

ولم يكن يلين للسلاطين ويتذلل لهم حتى لا يبالوا بـه ، ولم يكن يغلظ عليهم ويشتد معهم حتى ينفروا منه ، بل كـان يعرف كيف يخاطبهم ، فيمدحهم بما هو فيهم من فضيلة ، وينكر عليهم ما هم فيه من مخالفة • ومن نظر في كتبه اليهم لم ينتـه إعجابه بها •

وكان أعظم مزاياه ، أنه لا يسكت عن قولة الحق أبداً ، ولا يراعي في ذلك أحداً ، ولما أفتى شيخه (ابن الفركاح) في قضية الجواري بما رآه غير الحق ، لم يمنعه أنه شيخه من الكتابة في الرد عليه[1] . مع أنه بلغ الغاية في تعظيم شيوخه وخدمتهم . حتى أنه حمل الابريق بنفسه لأبي حفص الربعي الى بيت الخلاء .

ولم يكن يبالي في الحق لا ملكاً ولا سلطانا ، وهاكم طرفاً من أخباره في هذا الباب .

قضية الحوطة على بساتين الشام

لما ورد دمشق من مصر السلطان المجاهد العظيم الملك الظاهر بيبرس بعد قتال التتار ، واجلائهم عن البلاد ، زعم له وكيل بيت المال (وزير المالية) ان كثيراً من بساتين الشام من أملاك الدولة ، فأمر الملك بـ (الحوطة عليها) أي بحجزها وتكليف واضعي اليد على شيء منها اثبات ملكيته ، وابراز وثائقه ، فلجؤوا الى الشيخ في دار الحديث ، فكتب الى الملك هذا الكتاب :

---

(١) وتفصيل الخبر في رسالة السخاوي التي اعتمدت عليها ، وفي طبقات السبكي ، وفي الدارس ، ولم اعرض للتفصيل فيها لانها مسألة علمية دقيقة لا يهتم بها اكثر القراء .

كتابه الى الملك الظاهر

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العـالمين ، قال الله تعالى :(وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين). وقال تعـالى : (وإذ أخذَ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننُنَّه للناس ولا تكتمونه). وقال تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) . وقـد أوجب الله على المكلفين نصيحـة السلطان ، أعـز الله أنصاره ، ونصيحة عامـة المسلمين ، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : الدين النصيحة ، لله ، وكتابه ، وأئمة المسلمين ، وعامتهم . ومن نصيحة السلطان وفقه الله لطاعته ، وأولاه بكرامته ، أن ينهي اليـه الاحكام اذا جرت على خلاف قواعد الاسلام ، وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية ، والاهتمام بالضَعَفة ، وإزالة الضرر عنهـم . قال الله تعالى : (واخفض جناحك للمؤمنين) . وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ : (إنمـا تنصرون وترزقون بضعفائكم) . وقال ﷺ : (من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) وقال ﷺ : (اللهم من ولي من امر أمتي شـيئاً فرفق بهم فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه) . وقال ﷺ : (كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته) . وقال ﷺ : (ان المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) . وقد أنعم الله تعالى علينا وعلى

سائر المسلمين ، بالسلطان أعز الله انصاره ، فقد أقامه لنصرة الدين، والذب عن المسلمين ، وأذل به الأعداء من جميع الطوائف ، وفتح عليه الفتوحات المشهورة ، في المدة اليسيرة . وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين ، وسائر الماردين ، ومهد له البلاد والعباد ، وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد ، وأمده بالاعانة واللطف والسعادة ، فله الحمد على هذه النعم الظاهرة ، والخيرات المتكاثرة ، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين ، وزيادتها في خير وعافية آمين .

وقد أوجب الله شكر نعمه ، ووعد الزيادة للشاكرين ، فقال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم ، أنواع من الضرر ، ولا يمكن التعبير عنها ، وطلب منهم اثبات لا يلزمهم ، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين ، بل من في يده شيء فهو ملكه ، لا يحل الاعتراض عليه ، ولا يكلف باثباته . وقد اشتهر من سيرة السلطان انه يحب العمل بالشرع ، ويوصي نوابه به ، فهو اولى من عمل به ، والمسؤول اطلاق الناس من هذه الحوطة ، والافراج عن جميعهم ، فاطلقهم اطلقك الله من كل مكروه ، فهم ضعفة ، ومنهم الايتام ، والارامل ، والمساكين ، والضعفة ، والصالحون ، وبهم تنصر وتغاث وترزق ، وهم سكان الشام المبارك ، جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، وسكان ديارهم ، فلهم حرمات من جهات ، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد ، لاشتد حزنه

عليهم ، وأطلقهم في الحال ، ولم يؤخرهم ، ولكن لا تنهى اليه الامور على وجهها ، فيالله ! أغث المسلمين ، يغثك الله ، وارفق بهم ، يرفق الله بك ، وعجل لهم الافراج قبل وقوع الامطار ، وتلف غلاتهم ، فان اكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم ، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء[1] ، وقد نهبت كتبهم ، واذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته ، ويظهره على أعدائه ، فقد قال الله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم » ، وتتوفر له من رعيته الدعوات ، وتظهر في مملكته البركات ، ويبارك له في جميع ما يقصده من الخيرات. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة) ، فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التي يذكر بها الى يوم القيامة ، ويحميه من السنن السيئة ، فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه .

غضب الملك

فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه ، وخشي إذا لان له أن يعيد معه في الشام سيرة العز بن عبد السلام في مصر ، فأجابه

---

(١) اي اسناد تمليك .

بالرد الشديد ، وأراد أن يعجل عليه العقوبة ، فأمر بقطع رواتبه وعزله من مناصبه . فقالوا له :

ـ انه ليس للشيخ راتب ، وليس له منصب .

وثبات الشيخ

ولما رأى الشيخ أن الكتاب لم يفد ، وأن هذا اللين منه لم يأت بنفع ، مشى اليه بنفسه ، وقابله وكلمه كلاماً غليظاً . وأراد السلطان البطش به ، فصرف الله قلبه عن ذلك ، وحمى الشيخ منه ، وأبطل الامر بـ (الحوطة) ، وخلص الله الناس من شرها .

قضية الضريبة

ثم جاءت قضية أخرى :

أراد السلطان أن يجهز جيشاً ، ففرض على الناس ضريبة جديدة ، فعاذوا منه بالشيخ ، واجتمع اليه علماء دمشق ووكلوه أن يكتب ما يريد ، وهم يمضون معه الكتاب ، وكانت الوحشة لا تزال قائمة بينه وبين الملك ، لما كان منه في (قضية الحوطة) . فلم يكتب اليه رأساً ، بل كتب الى الامير بدر الدين الخازندار ليوصل كتبه اليه ، وكان بدر الدين نائب المملكة ، واتابك الجيوش (اي القائد العام) وكان موصوفاً بكثرة المودة ، ومحبة العلماء والصلحاء ، وحسن السيرة .

قال تلميذه السخاوي : فمما كتبه وأرسل به ورقة الى الظاهر تتضمن وجوب العدل في الرعية ، وازالة المكوس عنهم ، ووضع العلماء الشيوخ خطوطهم معه ، ووضع هذه الورقة في كتاب الى الامير هذا نصه :

كتابه الى نائب المملكة

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله يحيى النووي ، سلام الله ورحمته وبركاته على المولى المحسن ، ملك الأمراء بدر الدين أدام الله له الخيرات ، وتولاه بالحسنات ، وبلغه من خيرات الآخرة والأولى كل آماله ، وبارك له في جميع أحواله ، آمين . وننهي الى العلوم الشريفة ، أن أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيش ، وضعف حال ، بسبب قلة الأمطار ، وغلاء الأسعار ، وقلة الغلات والنبات ، وهلاك المواشي ، وغير ذلك . وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الراعي والرعية ، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم ، فان الدين النصيحة ، وقد كتب خدام الشرع ، الناصحون للسلطان ، المحبون له كتابا ، بتذكرة النظر ، في أحوال رعيته ، والرفق بهم ، وليس فيه ضرر ، بل هو نصيحة محضة ، وشفقة تامة ، وذكرى لأولي الألباب ، والمسؤول من الأمير ، أيده الله تعالى ، تقديمه الى السلطان ، أدام الله له الخيرات ، ويتكلم عليه من الاشارة بالرفق بالرعية ، بما يجده مدخراً له عند الله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا ، ويحذركم الله

نفسه) ، وهذا الكتاب الذي أرسله العلماء الى الامير أمانـة ، ونصيحة للسلطان ، أعز الله أنصاره ، والمسلمين كلهم في الدنيـا والآخرة . فيجب عليكم إيصاله للسلطان ، أعز الله أنصاره ، وأنتم مسؤولون عن هذه الأمانة ، ولا عـذر لكم في التأخـر عنهـا ، ولا حجة لكم في التقصير فيهـا ، عنـد الله تعـالى وتسألون عنهـا (يوم لا ينفع مـال ولا بنون) ، (يوم يفـر المرء من أخيـه ، وأمه وأبيـه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يُغنيه) ، وأنتم بحمـد الله تحبون الخير ، وتحرصون عليه ، وتسارعون اليه ، وهـذا من أهم الخيرات ، وأفضل الطاعات ، وقد أهلتم له ، وسـاقه الله اليكم ، وهـو فضـل من الله ، ونحن خائفون أن يزداد الامر شـدة ، ان لم يحصل النظر في الرفق بهم . قال الله تعالى : (ان الذين اتقـوا إذا مسّهم طائف مـن الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) . وقال تعالى : (وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) . والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا ،فما فعلتموه وجدتموه عند الله ، (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الملك يتوعد العلماء

فقرأ الأمير الكتاب ، ورفع الورقة الى السلطان ، فاشـتد غضبه ، واحتج بأنه يريد هذا المال للجهاد ، وهم يعارضونه ، وكان عليهم أن يؤيدوه ، وانهم ينكرون عليـه ، ولم يكونوا

ينكرون على الكفار لما كانوا يحكمون البلاد ، قبل أن يخرجهم منها بجهاده الطويل ، ومثابرته عليه . وتوعد العلماء ، فتقاعسوا ، ولكن النووي ، لم يبال ، وكتب اليه في الجواب هذا الكتاب :

كتاب الشيخ الى الملك

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . من عبد الله يحيى النووي ، ينهي : أن خدام الشرع ، كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره ، فجاء الجواب بالانكار والتوبيخ والتهديد ، وفهمنا من أن الجهاد ذكر في الجواب على خلاف حكم الشرع ، وقد أوجب الله ايضاح الاحكام عند الحاجة اليها ، فقال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) . فوجب علينا حينئذ بيانه ، وحرم علينا السكوت ، قال الله تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) ، وذكر في الجواب ان الجهاد ليس مختصاً بالأجناد ، وهذا أمر لم ندّعه ، ولكن الجهاد فرض كفاية ، فاذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين ، ولهم أخباز معلومة من بيت المال ، كما هو الواقع ، تفرغ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والاجناد وغيرهم ، من الزراعة

والصنائع وغيرها مما يحتاج الناس كلهم اليه ، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء ، من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك ، وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا ، وبيت المال بحمد الله معمور ، زاده الله عمارة وسعة وخيراً وبركة في حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين (وما النصر إلا من عند الله) ، وإنما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار الى الله تعالى ، واتباع آثار النبي ﷺ ، وملازمة أحكام الشرع ، وجميع ما كتبناه ، أولاً وثانياً ، هو النصيحة التي نعتقدها ، وندين الله بها ، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه ، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية ، وليس فيها مايلام عليه ، ولم نكتب هذا للسلطان ، إلا لعلمنا انه يحب الشرع ، ومتابعة أخلاق رسول الله ﷺ في الرفق بالرعية والشفقة عليهم ، واكرامه لآثار النبي ﷺ ، وكل ناصح للسلطان موافق على هذا الذي كتبناه ، وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد ، فكيف تقاس ملوك الاسلام وأهل الايمان والقرآن ، بطغاة الكفار ؟ وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأي حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون

به لو كان فيــه ما يلام عليــه ؟ وأما أنا في نفسي فــلا يضرني التهديد ، ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فاني أعتقد أن هــذا واجب عليّ وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله (إنمــا هذه الحيــاة الدنيــا متــاع وان الآخرة هي دار القــرار) ، (وأفوض أمــري الى الله ، إن الله بصير بالعباد) وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقــول الحق حيثما كنا ، وأن لا نخاف في الله لومة لائم ، نحن نحب للسلطان معالي الأمور ، وأكمل الأحوال ، وما ينفعه في آخرته ودنياه ، ويكون سبباً في دوام الخيرات له ، ويبقى ذكره له على ممر الأيام ، ويخلد في سننه الحسنة ويجد نفعه (يوم تجد كل نفسٍ ما عملت مــن خيرٍ مُحضرا) ، وأما ما ذكر في تمهيــد السلطان البلاد ، وإدامته الجهاد وفتح الحصون ، وقهر الأعداء ، فهو بحمد الله من الامور السائغة التي اشترك في العلم بها الخاصة والعامة ، وسارت في أقطار الارض ولله الحمد ، وثواب ذلك مدخر للسلطان الى يوم تجــد كل نفس ما عملت مــن خير محضرا ، ولا حجة لنا عند الله إذا تركنا النصيحة الواجبة علينا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ابن النجار

وكان في دمشق في ذلك العصر ، عالم من علماء السوء ، الذين لا يخلو من أمثالهم عصر ولا مصر ، يسخّرون علمهم لتأييد اهواء السلاطين ، يبتغون لهم الفتاوى الباطلة ينسبونهــا الى

الدين ، وكان اسم هذا العالم (ابن النجار) ، وقد زيّن للسلطان ما ذهب اليه من أخذ الارضين من أصحابها ، باسم (الحوطة) التي مرّ الكلام عنها ، وراح يوغر صدره على العلماء ، وعلى النووي خاصة ، ثم زاد به الامر فكتب الى النووي كتابا يتهدده فيه باسم السلطان ويقول له فيه : أنت حرّكت العلماء •

فكتب اليه النووي هذا الكتاب ، يردّ فيه عليه ، وهو انما يرد فيه (في الحقيقة) على السلطان •

وهو كتاب طويل ، حاولت أن أختصر منه شيئاً ، خشية أن أملّ القارىء ، وأن أجتزىء ببعضه عن بعض ، فما استطعت أن أسقط منه سطراً ، ولا سمحت نفسي بترك شيء منه ، لان فيه صورة كاملة لأخلاق النووي ، وسلوكه ، وحياة العلماء في ذلك العصر ، وطبيعة صلتهم بالسلطان ، فهو كلما ذكر السلطان دعا له ، وتأدب معه ، وأثنى عليه ، ولكنه لا يثني عليه بما ليس فيه ، ولا يتمنع من القيام بحق الله بين يديه ، ويعلن أنه سيقف منه الموقف الذي يوجبه عليه الشرع إن لم يستجب لدعوة الحق ، ويعمل على إزالة المنكر ، ولا يتبجح مع ذلك بما عزم عليه ، ولا يفتخر ، بل يكتفي بقوله : (واعلم أيها الظالم نفسه ، اني والله الذي لا إله إلا هو لا أترك شيئاً أقدر عليه من السعي في مناصحة الدين والسلطان والمسلمين في هذه القضية ، وان رغمت أنوف الكارهين ، وسترى ما أتكلم به إن شاء الله عند هذا السلطان) •

وقد رأى ابن النجار ، ورأى المؤرخون ونقلوا ما تكلم به ، والموقف الثابت الذي وقفه •

ولا أحب أن أفسد أثر الكتاب بالشرح ، ولا يحتاج الى شرح ، وإن كان أسلوبه (كما ترون) من أساليب ذلك العصر ، فيه الوضوح ، وفيه الصحة ، ولكن ليس فيه بلاغة الترسل ، ولا روعة البيان ، وليس من الاساليب الادبية التي تحتذى .

كتابه اليه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين

من يحيى النووي

اعلم أيها المقصر في التأهب لمعاده ، التارك مصلحة نفسه في تهيئة جهاده له وزاده ، اني كنت لا أعلم كراهتك لنصرة الدين ، ونصيحة السلطان والمسلمين ، حملا مني لك على ما هو شأن المؤمنين ، من احسان الظن بجميع الموحدين ، وربما كنت أسمع في بعض الاحيان من يذكرك بغش المسلمين ، فانكر عليه بلساني وقلبي ، لانها غيبة لا أعلم صحتها .

ولم أزل على هذا الحال الى هذه الايام ، فجرى ما جرى من قول قائل للسلطان وفقه الله الكريم للخيرات ، إن هذه البساتين يحل انتزاعها من أهلها عند بعض العلماء ، وهذا من الافتراء الصريح ، والكذب القبيح ، فوجب علي وعلى جميع من علم هذا من العلماء ، أن نبين بطلان هذه المقالة ، ودحض هذه الشناعة ، وأنها خلاف إجماع المسلمين ، وأنه لا يقول

بها أحد من أئمة الدين ، وأن ينهوا ذلك الى سلطان المسلمين ، فانه يجب على الناس نصيحته ، لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح : الدين النصيحة ، لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، وأئمة المسلمين ، وعامتهم •

وإمام المسلمين في هذا العصر هو السلطان ، وفقه الله تعالى لطاعته ، وتولاه بكرامته ، وقد شاع بين الخواص والعوام أن السلطان كثير الاعتناء بالشرع ، ويحافظ على العمل به ، وأنه بنى المدارس ، لطوائف العلماء ، ورتب القضاة من المذاهب الاربعة ، وأمر بالجلوس في دار العدل لإقامة الشرع ، وغير ذلك مما هو معروف ، من اعتناء السلطان أعز الله أنصاره بالشرع ، وأنه إذا طلب طالب منه العمل بالشرع ، أمر بذلك ولم يخالفه •

فلما افترى هذا القائل في أمر البساتين ما افتراه ، ودلس على السلطان ، وأظهر أن انتزاعها جائز عند بعض العلماء ، وغش السلطان في ذلك ، وبلغ ذلك علماء البلد ، وجب عليهم نصيحة السلطان ، وتبيين الامر له على وجهه ، وأن هذا خلاف إجماع المسلمين ، فانه يجب عليهم نصيحة الدين والسلطان وعامةالمسلمين•

فوفقهم الله تعالى للاتفاق على كَتْبِ كتاب يتضمن ماذكرته من جهة النصيحة للدين والسلطان والمسلمين ، ولم يذكروا فيه أحداً بعينه ، بل قالوا من زعم جواز انتزاعها فقد كذب •

وكتب علماء المذاهب الاربعة خطوطهم بذلك لما يجب عليهم

من النصيحة المذكورة ، واتفقوا على تبليغها ولي الامر أدام الله نعمه عليه ، لينصحوه ويبينوا له حكم الشرع .

ثم بلّغني جماعات متكاثرات في أوقات مختلفات ، حصل لي العلم بقولهم أنك كرهت سعيهم في ذلك ، وشرعت في ذم فاعل ذلك ، وأسندت معظم ذلك كله إليّ ، ويا حبذا ذلك من صنيع ، وبلّغني عنك هؤلاء الجماعات أنك قلت (قولوا ليحيى هذا الذي سعى في هذا فينكف عنه ، وإلا أخذت منه دار الحديث) ، وبلغني عنك هؤلاء الجماعات أنك حلفت مرات بالطلاق الثلاث أنك ما تكلمت في انتزاع هذه البساتين ، وأنك تشتهي اطلاقها .

فياظالم نفسه ، أما تستحي من هذا الكلام المتناقض ، فكيف يصح الجمع بين رغبتك في اطلاقها ، وأنك لم تتكلم فيها ، وبين كراهتك السعي في اطلاقها ، ونصيحة السلطان والمسلمين ؟

ويا ظالم نفسه ، هل تعرض لك أحد بمكروه ؟ أو تكلم فيك بغيبتك ؟ وانما قال العلماء (من قال هذا للسلطان فقد كذب ودلس عليه وغشه ولم ينصحه ، فان السلطان ما يفعل إلا لاعتقاده ، أنه حلال عند بعض العلماء) ، فبينوا أنه حرام عند جميعهم .

وأنت فقد قلت أنك لم تتكلم فيها ، وحلفت على هذا بالطلاق الثلاث ، فأي ضرر عليك في إبطال قول كاذب على الشرع ، غاش مدلس على السلطان ، وقد قلت إنه غيرك ؟

وكيف تكره السعي على شيء قد أجمع الناس على استحسانه، بل هو واجب على من قدر عليه ؟

وأنا بحمد الله من القادرين عليه بالطريق الذي سلكت ، وأما نجاحه فهو الى الله تعالى ، مقلب القلوب والابصار ، ثم اني أتعجب غاية العجب من اتخاذك إياي خصماً ، ويا حبذا من اتخاذ ، فإني بحمد الله تعالى ، أحب في الله تعالى ، وأبغض فيه ، فأحب من أطاعه ، وأبغض من خالفه •

وإذا أخبرت عن نفسك بكراهتك السعي في مصلحة المسلمين، ونصيحة السلطان ، فقد دخلت في جملة المخالفين ، وصرت ممن نبغضه لله رب العالمين ، فان ذلك من الايمان ، كما جاءت به الآثار الصحيحة المنقولة بأسانيد الأئمة الاخيار : ارض لمن غاب عنك غيبته ، فذاك ذنب عقابه منه •

ويا ظالم نفسه ، أنا ما خاصمتك أو كلمتك أو ذكرتك ، وليس بيني وبينك مخاصمة أو منازعة أو معاملة في شيء ، فما بالك تكره فعل خير يسرني الله الكريم له (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) • بل أنت لسوء نظرك لنفسك تنادي على نفسك ، وتشهد الشهود ، بكراهة هذه النصيحة ، التي هي مصرحة بانك أنت الذي تكلمت في هذه البساتين ، وأن الطلاق واقع عليك ، وما أبعد أن تكون شبيهاً بمن قال الله تعالى فيهم (ولتعرفنهم في لحن القول ، والله يعلم أعمالكم) •

ويا عدو نفسه ، أتراني أكره معاداة من سلك طريقك هذه ؟

بل والله أحبها وأوثرها ، وأفعلها بحمد الله تعالى ، فان الحب في الله والبغض فيه ، واجب علي وعليك وعلى جميع المكلفين .

ولست أدري أي غرض لك في حرصك على الانكار على الساعين في إعظام حرمات الدين ، ونصيحة السلطان والمسلمين ؟

فيا ظالم نفسه ، انته عن هذا ، وارجع عن طريقة المباهتين المعاندين .

وأعجب من هذا تكرير الارسال إليّ بزعمك الفاسد ، كالمتوعد ان لم ينكف ، أخذت منه دار الحديث .

فيا ظالم نفسه ، وجاهل الخير وتاركه ، اطلعت على قلبي ، أني متهافت عليها ، أو علمت أني منحصر فيها ، أو تحققت أني معتمد عليها ، مستند اليها ، أو عرفت أني أعتقد انحصار رزقي فيها ، أو ما علمت ، لو أنصفت ، كيف كان ابتداء أمرها ، أو ما كنت حاضراً مشاهداً أخذي لها ؟

ولو فرض تهافتي عليها ، أكنت أوثرها على مصلحة عامة للمسلمين ، مشتملة على نصيحة لله وكتابه ورسوله ﷺ ، والسلطان وعامة المسلمين ؟

هذا لم أفعله ، ولا أفعله إن شاء الله تعالى .

وكيف تتوهم أني أترك نصيحة الله ورسوله وسلطان المسلمين وعامتهم مخافة من خيالاتك ؟

إن هذه لغباوة منك عظيمة .

ويا عجباً منك ، كيف تقول هذا ، أأنت رب العالمين ، بيدك خزائن السموات والارضين ،وعليك رزقي ورزق الخلائق أجمعين؟ أم أنت سلطان الوقت تحكم في الرعية بما تريد ؟

لو كنت عاقلا ما تهجمت على التفوه بهذا الذي لا ينبغي أن يقوله إلا رب العالمين ، أو سلطان الوقت ، مع أن سلطان الوقت منزّه عن قولك الباطل ، مرتفع المحل عن فعل ما ذكرت يا ظالم ، فان كنت تقول هذا استقلالاً منك ، فقد افتئت عليه ، واجترأت على أمر عظيم ، ونسبته الى الظلم عدوانا ، وإن كنت تقوله عنه ، فقد كذبت عليه ، فإنه بحمد الله حسن الاعتقاد في الشرع ، وذلك من نعم الله تعالى عليه ، والسلطان بحمد الله وفضله أكثر اعتقاداً في الشرع من غيره ، ومعظّم حرماته ، وليس هو ممن يقابل ناصحيه بهذيانات الجاهلين ، وترّهات المخالفين ، بل يقبل نصائحهم ، كما أمره الله تعالى .

واعلم أيها الظالم نفسه ، أني والله الذي لا إله إلا هو ، لا أترك شيئاً أقدر عليه من السعي في مناصحة الدين والسلطان ، والمسلمين في هذه القضية ، وإن رغمت أنوف الكارهين ، وإن كره ذلك أعداء المسلمين ، وفرق حزب المجادلين.، وسترى ما أتكلم به إن شاء الله تعالى عند هذا السلطان وفقه الله تعالى لطاعته ، وتولاه الله ببركاته ، في هذه القضية ، غيرة على الشرع وإعظاماً لحرمات الله تعالى ، وإقامة للدين ، ونصيحة للسلطان وعامة المسلمين .

ويا ظالم نفسه ، أجلب بخيلك ورجلك إن قدرت ، واستعن بأهل المشرقين ، وما بين الخافقين ، فإني بحمد الله تعالى ، في كفاية تامة ، وأرجو من فضل الله تعالى ، أنك لا تقوى لمنابذة أقل الناس مرتبة ، وأنا بحمد الله تعالى ، ممن يود القتل في طاعة الله تعالى .

أتقوى يا ضعيف الحيل لمنابذتي ؟ أبلغك يا هذا أني لا أومن بالقدر ؟ أوبلغك أني أعتقد أن الآجال تنقص ، وأن الأرزاق تتغير ؟

أما تفكر في نفسك في قبيح ما أتيته من الفعال ، وسوء ما نطقت به من المقال ؟

يا ظالم نفسه ، من طلب رضى الله تعالى ، ترده خيالاتك وتمويهاتك وأباطيلك وترّهاتك ؟

وبعد هذا كله . أنا أرجو من فضل الله تعالى أن يوفق السلطان أدام الله نعمه عليه ، لاطلاق هذه البساتين ، وأن يفعل فيها ما تقرّ به أعين المؤمنين ، ويرغم به أنف المخالفين ، فان الله تعالى قال « والعاقبة للمتقين » ، والسلطان بحمد الله تعالى ، يفعل الخيرات ، فما يترك هذه القضية تفوته .

واعلم أنك عندي بحمد الله تعالى أقل من أن أهتم بشأنك أو التفت الى خيالاتك وبطلانك ، ولكني أردت أن أعرفك بعض أمري ، لئلا تدخل نفسك في منابذة المسلمين بأمرهم ، ومنابذة

سلطانهم ، وفقه الله تعالى ، على بصيرة منك ، وترتفع عنك جهالة بعض الامر ، ليكون دخولك بعد ذلك معاندة ، لا عذر لك فيها .

ويا ظالم نفسه ، أتتوهم أنه يخفى عليّ وعلى من سلك طريق نصائح المسلمين وولاة الامر وحماة الدين ، أنا لا نعتقد صدق قول الله تعالى « والعاقبة للمتقين » ، وقوله تعالى « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » ، وقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، وقوله تعالى « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »، وقوله تعالى « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم خذلان من خذلهم) ، والمراد بهذه الطائفة أهل العلم ، كذا قاله أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من أهل العلم والفهم، وقوله ﷺ (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) . هذا فيمن كان في واحد من الناس ، فكيف الظن بمن هو في عون المسلمين أجمعين ؟ مع إعظام حرمات الشرع ، ونصيحة السلطان ، وموالاته وبذل النفس في ذلك ؟

واعلم اني والله لا أتعرض لك بمكروه ، سوى أن أبغضك لله تعالى ، وما امتناعي عن التعرض لك بمكروه من عجز ، بل أخاف الله رب العالمين من إيذاء من هو من جملة الموحدين .

وقد أخبرني من أثق بخبره وصلاحه وكراماته وفلاحه ، أنك إن لم تبادر بالتوبة ، حل بك عقوبة عاجلة تكون بها آية لمن بعدك،

ولا يأثم بها أحد من الناس ، بل هو عدل من الله تعالى ، يوقعه بك عبرة لمن بعدك ، فان كنت ناظراً لنفسك فبادر بالرجوع عن سوء أفعالك ، وتدارك ما أسلفته من قبيح فعالك ، قبل أن يحل بك ما لا تقال به عثرتك ، ولا تغتر بسلامتك ، وفكر في قول القائل :

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان في العالم من يسمع
كم واثق بالعمر واريته وجامع بددت ما يجمع

والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين .

الاستسقاء

انقطع المطر في الشام ، على أيام الشيخ النووي ، وتوالت السنون ، حتى أجدبت الارض ، وصارت سهولها صحارى ، وجف الضرع ، وهلكت المواشي ، وشحت الينابيع ، ونشفت العيون ، وكان الماء تحت وجه الارض يحفر الحافر ذراعين فيصل اليه ، فصار يحفر في الارض عشرين ذراعاً فلا يجد ماء ، وهجر أهل القرى قراهم ، وأمّوا دمشق لعلهم يجدون فيها ماء ، وغدا بردى كأنه ساقية من السواقي ، الماء الذي يجري فيه لا يكاد يبلّ أرضه ، بعد ان كان يهدر صخّابا ، يترع المجرى ويضرب الضفتين ، وغلت الأسعار ، وضجّت العامة ، ولجؤوا الى الشيخ النووي في دار الحديث ، وكانت دار الحديث ، كما قدمنا ، كالجامعة اليوم ، وكان استاذها الاكبر النووي ، ولكنها

كانت جامعة ، الناسُ كلهم تلاميذ فيها ، منقادون الى مدرسيها، لأنهم علماء الدين ، ولأنهم ورثة الأنبياء ، وكان النووي أستاذ البلد كله لا أستاذ طلاب الجامعة وحدهم .

ودعا النووي علماء دمشق ، كما يدعو الرئيس (البرلمان) إذا دهم الخطر ، أو تجلت المشكلة ، وكان العلماء هم أهل الحل والعقد ، وهم كانوا مرجع الناس في أمور دينهم ، وأمور دنياهم .

وبحث العلماء ، وتذاكروا ، ماذا يصنعون ليستنزلوا الغيث، ويستمطروا المطر ، فلم يجدوا لتلك العلة إلا دواء واحداً ، أنزله الذي ينزل المطر ، وخبر به عباده على لسان نبي من أنبيائه ، حين قال :

« فقلت استغفروا ربَّكم إنه كان غفارا ، يُرسلِ السماء عليكم مدرارا ، ويُمددْكم بأموالٍ وبنينَ ، ويجعلْ لكم جناتٍ ويجعلْ لكم أنهارا » .

كل ذلك بالاستغفار ، فبالاستغفار تهطل الأمطار ، وبالاستغفار تجري الأنهار ، ولكن الاستغفار لا يكون باللسان وحده ، بل يكون بالاقلاع عن الذنوب ، والعزم على عدم العودة اليها .

وكانت في الشام في تلك الايام ، كما يروي المؤرخون ، منكرات معلنة ، ومعاصٍ ظاهرة ، ولا بد من إزالتها قبل إحياء سنة الاستسقاء ، ولا يقدر على إزالتها إلا السلطان .

وكان السلطان (كما عرفتم) هو الملك الظاهر الرجل العظيم، والقائد المظفر ، الذي طهر البلاد من الاعداء الثلاثة الكبار : المغول والصليبيين والبيزنطيين ، وأنقذها من الاستعمار ، وأعاد الوحدة بين مصر والشام ، وكان مظفراً في حروبه ، وكانت له المهابة في الدول ، ولكنه لم يتفرغ للاصلاح الديني والخلقي في الداخل ، كما وفق للظفر العسكري والسياسي في الخارج .

وخاف بعض العلماء من الكتابة اليه ، وفي العلماء في كل زمان ومكان أهل ضعف وخور ، فتولى الشيخ النووي الأمر ، وكتب اليه هذا الكتاب الفريد الذي جمع الفقه وبيان حكم الاستسقاء ، الى الصراحة والبيان ، الى الادب والحكمة في خطاب السلطان .

وتاريخ هذا الكتاب : الاحد ١١ جمادى الاولى سنة ٦٦٨هـ اي أنه قد مرّ عليه الآن سبعمئة واثنتا عشرة سنة .

وهذا هو نصّه :

خدمة الشرع العلماء بدمشق المحروسة ، ينهون : أن الله سبحانه وتعالى ، أخذ عليهم العهد بتبليغ الشرع الى المكلفين ، ونصيحة الله تعالى وكتابه ورسوله ﷺ ، وولاة الامر وعامة المسلمين . ونصيحةُ الله ورسوله امتثالُ أوامرهما ، ومن نصيحة ولاة الامر ، تبليغهم شرائع الاحكام ، وارشادهم الى شعائر الاسلام ، والاشارة عليهم بفعلها وإشاعتها ونشرها ، ومن قال إن هذا ينافي التوكل أو إنه اعتراض على الله تعالى فهو مخطىء

جاهل ، بل انــه كافر ، لان ما فعله رســول الله ﷺ هو الحق والصواب الذي يجب على كل مكلف الانقياد له والمسارعة الى قبوله وانشراح الصدر له ٠

قال الله تعالى « فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلّموا تسليما » ، وقال تعالى « إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعوا الى الله ورســوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هــم المفلحون » وكل ما خالف سنة رسول الله ﷺ ، فهــو البدعــة والضلالة والغباوة والجهالة والسفاهة والرذالة ، بل هذه طريقة الكفار في مدافعة دين الاسلام ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ٠

ويجب على ولي الامر وفقه الله لطاعته ، إذا سمع كلام هذا الزاعم الجاهل ، الضال الغاشم المتجاهل ، وغيره ممن يقول نحو هذا القول ، في مدافعة الحق ، والاعتراض على سنن رسول الله ﷺ ، أن يؤدبه تأديباً بليغا ، ينزجر به هو وأمثاله ، ويشهر أمره ، لينكف أهل الجهالة والضلالة عن مثل فعله ٠

وليعلم أن المراد بالاستسقاء ، امتثال امر الله تعالى والاقتداء برســول الله ﷺ ، وهــو مصلحة فاخــرة ، وسعادة معجلة ، ومنة من الله تعالى يشكر على التوفيق لها ، وأما نزول المطر فهو الى الله تعالى ٠

وليس المراد بالاستسقاء ، تيقن نزول المطر ، فان علم الغيث

وانزال الغيث وغيره من الكائنات ، الى رب العالمين ، وقد أمرنا الله تعالى بدعائه ، ووعدنا بالاجابة ، وهو لا يخلف الميعاد ، وقال الله تعالى « ادعوني أستجب لكم » وقال تعالى « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » وقال تعالى « أمَّنْ يجيبُ المضطرَّ اذا دعاه ويكشفُ السوء » وقال تعالى « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيبُ دعوةَ الداعي اذا دعانِ ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » .

وليعلم انه ليس للاستسقاء شروط تعتبر في صحته ، سوى اجتماع الناس والصلاة ، وهذا متيسر لا مانع منه . لكن قال العلماء يستحب لولي الامر ، أن يأمر الناس قبل الخروج للاستسقاء بالتوبة من المعاصي ومصالحة الاعداء والصدقة وصيام ثلاثة ايام ، ويخرجون في اليوم الرابع صياما .

وهذا أدب مستحب ، ليس بواجب ولا شرط ، لو ترك صح الاستسقاء ، ومع هذا فهو هين بحمد الله تعالى لا كلفة فيه ، فان معناه أن ولي الامر يأمر بعض نوابه أن ينادي في الناس بذلك ، وليس معناه أن يحكم على قلوبهم بفعله ، فان ذلك لا يقدر عليه إلا رب العالمين ، بل هو يأمرهم به ، فمن وفق له فهو نعمة من الله تعالى عليه ، ومن حرمه فلا يضر إلا نفسه ، ويرجى للمسلمين الرحمة والخير بامتثال الموفقين .

وما يخلو هذا الامر من مصالح كثيرة ، من صلاة وصيام ، وصدقة وذكر وتوبة ، وإقلاع عن معاص ، وإقبال على الطاعات ،

لا سيما وقد منّ الله تعالى (وله الحمد والنعمة على المسلمين) بما وفق له السلطان ، زاده الله فضلاً وخيراً وتمكيناً وعلواً ونصراً ، وأدامه ظاهراً على أعداء الدين ، وسائر المخالفين ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكرات ، مبطلاً للحوادث ، مظهراً للمحاسن والخيرات ، بما فعله من إزالة هذا المنكر العظيم ، الفاحش الجسيم[1] الذي لم يسبق الى إزالته « ولينصرن الله من ينصره » ، فهذه نصيحة الخدَمة أنهوها الى الامير ، وهم راجون من فضل الله تعالى مسارعته الى هذه المصلحة ، وقد ضاق الوقت عن تأخيرها ، وهذه المصلحة لا تحصل بفعل آحاد الناس ، بل باجتماع الناس كلهم ، ومنهم العلماء والصالحون والصغار والضعفاء والمساكين والمضطرون ، وقد ثبت في الصحيح ، أن رسول الله ﷺ قال (وهل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم) والله يوفق الامير لكل مكرمة ، ويديمه آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، حاثاً على الاهتمام بشعائر الدين ، ومصالح المسلمين آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الخروج الى الاستسقاء

ولما وصلت الرسالة الى السلطان ، وفقه الله فأمر محتسب البلد فأغلق الحانات ، وأراق الخمور ، ومنع المنكرات ، وقمع أهلها ، ونادى في الناس بصيام ثلاثة أيام أولها يوم الاثنين

---

(١) يريد قضية (الحوطة) التي مر ذكرها .

١٢ جمادى الاولى من تلك السنة ، أي بعد كتابة رسالة النووي بيوم واحد ، وأمر بالصدقة والمعروف ومصالحة الاعداء ، وغير ذلك من آداب الاستسقاء ، ثم خرج السلطان بنفسه يوم الخميس صباحاً الى المصلّى ، وكان في أول الميدان بدمشق ، ولا يزال اسم باب المصلّى الى اليوم ، وخرج معه الناس في ثياب رثة متذللين متواضعين خاشعين لله ، ناكسي رؤوسهم ، وقد قدموا التوبة وردّوا المظالم ، وتصدقوا وصاموا الايام الثلاثة قبل الخروج ، فصلى بهم الشيخ النووي بأمر السلطان ، ثم قام للخطبة فوعظ وذكّر ، وبكى واستبكى ، فخشعت القلوب ، وذرفت العيون ، وتوجه الناس الى الله تعالى داعين مخلصين ، ثم استقبل القبلة ، وقلب رداءه ، تذللاً واقتداء بالرسول ﷺ ، ودعا ودعا معه الناس ، وأمنوا على دعائه ، وخرج الناس في بلاد الشام كلها كما خرج أهل دمشق .

ورجعوا بقلوب صافية ، ونفوس مؤمنة ، واثقين من الاجابة ، فما مرت سبعة أيام حتى أغيثت البلاد غيثاً عاماً ، وترادفت الامطار ، وامرعت الارض ، واستبشر الناس بعد ان حصل القنوط لكثير منهم .

وزادت الغلاّت حتى كان أخصب موسم رأته الشام من ثلاثين سنة .

★ ★ ★

وفاتـــــه

وكان النووي يوماً في المدرسة الرواحية ، وهـو في ذروة الشباب ، لم يجاوز الخامسة والاربعين ، وكان يشتهي أن يسافر الى بيت المقدس ، فدخل عليـه تلميذه السخاوي ، فقـال له النووي :

ــ قد رأيت في المنام انه قد أذن لي بالسفر ، فقم بنا حتى نودع أصحابنا وأحبابنا .

قال السخاوي : فخرجت معه الى المقبرة التي فيها بعض شيوخه ، فزار ودعـا وبكى ، ثم زار أصحـابه الاحياء ، ورد الكتب المستعارة .

وتوجه الى نوى ، فخرج معه جماعة من العلماء الى ظاهـر دمشق ، وسألوه :

ــ كم تطول الغيبة ، ومتى يكون الاجتماع ؟

قال : بعد زمن طويل .

ولما وصل الى نوى مرض في بيت والده ، فذهبت لزيارته فيها ، فسُر بذلك ، ورأيته قد أشرف على العافية ، ثم أمـرني بالرجوع الى دمشق .

فما مرت أيام حتى توفي في الثلث الاخير من ليلة الاربعـاء ١٤ رجب سنة ٦٧١ .

ولما وصل الخبر بوفاتـه الى دمشق ارتجت البلد ، وزلزل الناس ، ولم يصدقوا الخبر ، فلما تحققوه علموا انهم فقـدوا

رجلاً لن يروا مثله أبداً ، وزحفت دمشق الى حوران ، ومشى جلّة أهلها يتقدمهم قاضي القضاة ابن الصائغ وجماعة العلماء ، وتزاحم الشعراء على قبره يرثونه ، والخطباء يؤبنونه ، وكان يوم من الايام التي لا تنسى .

وأراد أقارب الشيخ أن يقيموا على قبره قبة ، فرأته عمته في النوم وكأنه كاره لذلك ، فأخبرتهم فلم يسمعوا منها وبنوا القبة ، فسقطت ، فرجعوا عن بنائها وحوّطوا على قبره حجارة وتركوه ، فكان نصير السنة ومنكر البدع في حياته وبعد مماته ، ومضى شابا ولكنه خلّف من العلم النافع ، ما لم يخلف مثله كبار الشيوخ ، وترك مع ذلك سيرة لا تزال قدوة لكل من أراد أن يخلص في العلم لله ، ويقنع من الدنيا بمثل زاد الراكب ، ويكون زاهداً حقاً ، زهد العلماء العاملين ، والصالحين المصلحين ، لا زهد الذين يتوارون وراء جدران (التكايا) ،أو في مغارات الجبال ، لا ينفعون الناس بعلم يبثونه ، ولا معروف يأمرون به ولا منكر ينكرونه . ورأت دار الحديث أئمة كباراً[1] ، وما أظنها رأت مثله .

رضي الله عنه ، وفسح له في جناته ، ووفق ناشئتنا الى الاقتداء بسيرته ، وسلوك طريقه .

---

(١) اولهم ابن الصلاح ، ثم ابن الحرستاني ، ثم ابو شامة ، ثم النووي ، ثم الفارقي ، ثم ابن المرحل (وفي الدارس الذي نشره المجمع العلمي ابن مراجل وهو غلط) ثم ابن خطيب زملكا ، ثم الشريشي ، ثم الحافظ المزي . ومنهم السبكي ، وابن كثير ، والتاج السبكي ، وابن ناصر ، وابن حجر العسقلاني ، واخبارهم في الدارس ، وآخرهم الشيخ بدر الدين الحسني رحمة الله على الجميع .

فهرس

صفحة

صفحـــة

* * *